

دلائل الإعجاز

(سالتْ عَلَیْهِ شِعَابُ الْحَيِّ حِينَ دَعَا ... أَنْصَارَهُ بِوُجُوهِ
كَالدَّانِيَةِ) .

فإِنَّكَ تَرَى هَذِهِ الِاسْتِعَارَةَ عَلَى لُطْفِهَا وَغَرَابَتِهَا إِنْ نَسَّما تَمَّ لَهَا الْحَسَنُ وَانْتَهَى إِلَى
حَيْثُ انْتَهَى بِمَا تُؤَدِّى فِي وَضْعِ الْكَلَامِ مِنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ . وَتَجِدُهَا قَدْ مَلَأَتْ
وَلَطَفَتْ وَبِمُعَاوَنَةِ ذَلِكَ وَمُؤَاوَزَتِهِ لَهَا . وَإِنْ شَكَّكَتْ فَأَعْمَدُ إِلَى الْجَارِّينَ وَالْظَرْفِ
فَأَزِلْ كَلَامًا مِنْهَا عَنْ مَكَانِهِ الَّذِي وَضَعَهُ الشَّاعِرُ فِيهِ فَقُلْ : سالتْ شِعَابُ الْحَيِّ بِوُجُوهِ
كَالدَّانِيَةِ عَلَيْهِ حِينَ دَعَا أَنْصَارَهُ . ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ يَكُونُ الْحَالُ وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْحَسَنُ
وَالْحُلَاوَةُ وَكَيْفَ تَعْدَمُ أَرْوَاحُكَ الَّتِي كَانَتْ وَكَيْفَ تَذْهَبُ الذِّشْوَةُ الَّتِي كُنْتَ تَجِدُهَا .
وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنْ هَاهُنَا كَلَامًا حَسَنًا لِلْظَرْفِ دُونَ النِّظْمِ وَآخِرَ حَسَنِهِ لِلدَّظْمِ دُونَ
الْظَرْفِ وَثَالِثًا قَدْ أَتَاهُ الْحَسَنُ مِنَ الْجَهْتَيْنِ وَوَجِبَتْ لَهُ الْمَزِيَّةُ بِكُلِّ الْأَمْرَيْنِ
وَالِإِشْكَالُ فِي هَذَا الثَّلَاثِ وَهُوَ الَّذِي لَا تَزَالُ تَرَى الْغُلَطَ قَدْ عَارَضَكَ فِيهِ وَتَرَاكَ قَدْ
حَرِغْتَ فِيهِ عَلَى الذِّظْمِ فَتَرَكْتَهُ وَطَمَحْتَ بِبَصْرِكَ إِلَى الْظَرْفِ وَقَدْ رَتَّ فِي حُسْنٍ كَانَ بِهِ
وَبِالْظَرْفِ أَنَّهُ لِلْظَرْفِ خَاصَّةٌ . وَهَذَا هُوَ الَّذِي أُرِدْتُ حِينَ قُلْتُ لَكَ : إِنَّ فِي الِاسْتِعَارَةِ
مَا لَا يُمْكِنُ بَيَانُهُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ الْعِلْمِ بِالنِّظْمِ وَالْوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَتِهِ .

وَمِنْ دَقِيقِ ذَلِكَ وَخَفِيَّهِ أَنَّكَ تَرَى النَّاسَ إِذَا ذَكَرُوا قَوْلَهُ تَعَالَى : (وَاشْتَدَّ عِلَّ
الرَّاسُ شَيْبًا) لَمْ يَزِيدُوا فِيهِ عَلَى ذِكْرِ الِاسْتِعَارَةِ وَلَمْ يَنْسُبُوا الشَّرْفَ إِلَّا
إِلَيْهَا وَلَمْ يَرَوْا لِلْمَزِيَّةِ مُوجِبًا سِوَاهَا . هَكَذَا تَرَى الْأَمَرَ فِي ظَاهِرِ كَلَامِهِمْ وَلَيْسَ
الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ . وَلَا هَذَا الشَّرْفُ الْعَظِيمُ وَلَا هَذِهِ الْمَزِيَّةُ الْجَلِيلَةُ وَهَذِهِ الرَّوْعَةُ الَّتِي
تَدْخُلُ عَلَى الذِّفُوسِ عِنْدَ هَذَا الْكَلَامِ لِمَجَرِّدِ الِاسْتِعَارَةِ . وَلَكِنْ لَأَنَّ سُلُوكَ الْكَلَامِ طَرِيقُ
مَا يَسْنَدُ الْفِعْلُ فِيهِ إِلَى الشَّيْءِ وَهُوَ لِمَا هُوَ مِنْ سَبَبِيَّةٍ فَيُزْفَعُ بِهِ مَا يَسْنَدُ إِلَيْهِ
وَيُؤْتَى بِالَّذِي الْفِعْلُ لَهُ فِي الْمَعْنَى مَنْصُوبًا بِعَدِهِ مَبِينًا أَنَّ ذَلِكَ الْإِسْنَادَ وَتِلْكَ
النِّسْبَةَ إِلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ إِنْ نَسَّما كَانَ مِنْ أَجْلِ هَذَا الثَّانِي وَلَمَّا بَيَّنَّاهُ وَبَيَّنَّاهُ مِنْ
الْأَتَمِّ مَالٍ وَالْمُلَابَسَةِ كَقَوْلِهِمْ : طَابَ زَيْدٌ نَفْسًا وَقَرَّ عَمْرُؤُا وَعَيْنَانَا وَتَمَسَّ بِعِرْقًا
وَكَرَّمُ أَصْلًا